اللسانيات ودورها في وضع المصطلح

أ.د.بسام بركة

الجامعة اللبنانية

أمين عام اتحاد المترجمين العرب

سنحاول في هذا البحث تقديم دراسة لعلاقة المصطلح باللسانيات، نتناول المصطلح من حيث هو كلمة، أو وحدة لغوية، تُستعمل في ميدان محدَّد علمي للدلالة على شيء أو مفهوم واحد معيَّن. ونتناول من اللسانيات من حيث هي علم حديث طوَّر أدوات ووسائل متعددة لدراسة اللغة وتحليل آلياتها بعض المفاهيم العلمية الأساسية، وذلك لمحاولة سبر الإمكانيات التي تقدمها لنا هذه المفاهيم في سبيل وضع المصطلح وتطويره.

أ–الإشارة اللغوية والعلاقة بين الدال والمدلول:

يتألف كل لسان من إشارات أو علامات (تسمى عادة بالكلمات) لا يربط بينها وبين الشيء الذي تشير إليه رابط عضوي أو تشابهي. فليس في الشجرة (الشيء الخارجي) أي علامات أو خصائص تجعل المتكلم العربي يتلفظ بكلمة «شجرة» ليدل عليها، كما أن هذه الكلمة بحد ذاتها لا تملك عناصر أو تراكيب تدل بشكل ما على الشيء الخارجي (كأن تدل الشين مثلاً على الأوراق الخضراء، والجيم على الجذع والأغصان، الخ)، فاستعمال

كلمة «شجرة» ينتج عن اصطلاح جماعي اتفق عليه مجموع من الناس متكلمين. وهكذا، فإن العلاقة التي تربط الإشارة اللغوية والشيء الخارجي الذي تدل عليه هي نتيجة اتفاق رهط من الناس حول استعمالها وتداولها (وهذا الاتفاق يتمّ بالطبع خلال فترة طويلة من الزمن تخضع خلالها الإشارات اللغوية لعوامل عديدة، ويتم هذا الاتفاق بطريقة غير واعية في الإجمال).

ويتفق علماء اللسانيات مع فرديناند دي سوسور، رائد هذا العلم، على أن الإشارة اللغوية تتكون من عنصرين أساسيين هما: «الصورة السمعية» التي يُطلق عليها اسم «الدال» و« التصور المعنوي» الذي يسميه المدلول. فالدال في نظره ظاهرة صوتية تتألف من عدة أصوات متتابعة تكوّن الوجه «المادي» للكلمة، ونعني هنا بالوجه المادي الوجه الذي يدركه الإنسان بالحواس إدراكاً مباشراً. والدال إذاً هو الصورة الصوتية التي تنطبع مباشرة في ذهن السامع، وهو، بعبارة أخرى، الإدراك النفسي للعنصر الصوتي. أما المدلول فهو الذي يرافق الدال في عملية التكلم. وهو الصورة التي تنطبع في ذهن المتكلم أو السامع عندما يستعمل أو يتلقى الإشارة اللغوية.ولا يوجد أحد هذين العنصرين منفرداً فهما عبارة عن عنصرين لا فاصل بينهما. ويشبههما أحد علماء اللسانيات بوجهي العملة النقدية التي يفقد وجهها الأول قيمته بمجرد زوال الوجه الآخر.

ومما لاشك فيه أن كلٍ من الدال والمدلول لساني فحسب، وهما لا يوجدان إلا في ذهن الإنسان.

ب–انطلاقاً من هذا التحديد للعلاقة بين الدال والمدلول، نكتشف أن **ما يميز الكلمة العادية عن المصطلح** هو أن هذا الأخير يتكون من دال

ومدلول العلاقة فيه بين الدال والمدلول علاقة غير اعتباطية، بل هي ضرورية وعضوية. وهذا ما يقودنا إلى التكلم على العلاقة بين المفردة (من حيث هي دال ومدلول) والمرجع أو الشيء المتخيّل أو الواقعي الذي تدلّ عليه هذه المفردة. وقد شرح اللسانيون هذه العلاقة بما سموه المثلث السيميائي. وهو يتكون من ثلاثة عناصر هي: الدال والمدلول والمرجع.

ولابدّ هنا من **التمييز بين المصطلح من جهة والمرجع من جهة أخرى**[١].فنحن لا يمكننا أن نعدّ المصطلحات الخاصة بلغة ما، أية لغة، لائحة تضمّ تسميات متتالية لما يتضمنه العالم المحسوس. إنما هي نظام من العلاقات بين المفردات، نظام يكتسب قيمه ودلالاته من صميم هذه العلاقات وليس من ارتباط الكلمات بالأشياء التي تدلّ عليها فبالنسبة للبنيوية، النظام اللغوي هو الذي يؤسس–من الداخل–معاييره وقيمه ونظامه الدلالي.

وإذا قارنا بين اللغة والعلم لوجدنا أنهما يرجعان إلى مادة واحدة هي العالم الخارجيّ. لكن كلاً منهما يقوم بذلك بطريقة تختلف اختلافاً جذرياً عن الآخر. فاللغة العربية مثلاً تتضمن التجربة البشرية التي عاشتها الأمة العربية خلال القرون العديدة التي مضت. وهي تتضمن من المفردات والمصطلحات تلك التي تتفق مع اهتمامات العرب وأهدافهم. لذلك يُقال دائماً إن كلّ لغة تعكس (في تراكيبها وعلاقاتها الداخلية) «رؤية العالم» الخاصة بها والتي تختلف بالضرورة من أمة إلى أخرى. أما العلم، فإنه على العكس من ذلك يتضمن ما توصلّت إليه البشرية (أو فئة معيّنة من البشر) من معارف موضوعية

---

(١) انظر بسام بركة المصطلح في المعجم الثنائي–مسائل لسانية ودلالية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، العدد٢، صيف١٩٩٩، ص١٦٩–١٧٨.

وحقيقية..ولا ترتبط هذه المعارف برؤية ذاتية تخصّ هذا الشعب أو ذاك بقدر ما ترتبط بواقع العالم الخارجي وتركيباته. لذلك كان نقل العلوم من لغة إلى أخرى أسهل من نقل الآداب لأن هذه الأخيرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يُسمى بـ(روح) اللغة (وهنا يكمن التناقض عند العرب الذين يترجمون الأدب أكثر مما يترجمون العلم، كما سنرى). ولذلك أيضاً كان من الممكن ترجمة الموسوعات العلمية في حين لا يمكن ترجمة الموسوعات اللغوية.

ت–أما في ما يتعلق بالمصطلح وعلاقته باللغة والواقع:

فإن اللسانيات الحديثة تنطلق من أعمال فلاسفة اللغة (مثل فريجه وراسل) لتميز بين المعنى والمرجع على النحو التالي: إذا أخذنا مثال الكوكب المعروف باسم «الزهرة» وأشرنا إليه بالعبارتين المعروفتين: «نجم الصباح» و«نجم المساء»[1]، فإن مرجع هاتين العبارتين (ومرجع مفردة «الزهرة») هو نفسه، أي الكوكب الموجود في العالم غير اللغوي. أما معناهما فإنه مختلف، نظراً لأن العبارة الأولى تنقل مفهوماً يمتاز عن المفهوم الذي تنقله العبارة الثانية (النجمة تظهر في الصباح، النجمة تظهر في المساء).

يقع المرجع هنا إذاً خارج اللغة. فالمفردات–أكان مرجعها فعلياً/واقعياً (مثل حصان، سمكة، الخ) أم كان خيالياً (مثل طائرالرخ، الجنيات، الخ) تستعمل عادة في سياقات كلامية تكوّن مجموعات مرجعية، وتُعرَّف هذه المجموعات المرجعية بما يسمى في اللسانيات وعلم المنطق بالتوسع الدلالي

---

(١) يبدو أن هاتين التسميتين تعودان إلى زمن كان الناس يعتقدون فيه أنهما نجمان مختلفان.

(extension). وهذا يعني أن المرجع في التواصل العادي يتكوّن من مجموعات الكائنات أو الأشياء التي ينطبق عليها التعريف الدلالي للإشارة، أي أن كل هذه الكائنات (أو الأشياء) تتمتّع بعدد معين من الخصائص المشتركة التي تميزها والتي تنطبق عليها هذه الإشارة اللغوية. وينحصر التمييز بذلك بين المرجع والمعنى بكون الأول يُحدّ بالشيء الذي ترجع إليه المفردة (أو العبارة) في حين يُحدّ المعنى بكونه الطريقة (أو الكيفية) التي يُقدّم بها هذا المرجع. ومما لا شك فيه أن المعنى والمرجع يرتبطان على حد سواء بنظام اللغة نفسه وبالطريقة التي تعتمدها في تنظيم رؤية العالم وتقسيمه[١].

وإذا اعتمدنا هذا التمييز الدلالي في تحليل علاقة المفردة بالواقع ومقارنتها في لغتين مختلفتين لوجدنا عدة احتمالات نذكر منها:

١-إما أن توجد كلمة تدلّ على الشيء نفسه في اللغتين، وهذا ما يحصل بالنسبة للمصطلحات الخاصة بعلم من العلوم أو المصطلحات التي تدّل على وقائع بشرية عامة. وهنا يمكن الحصول على التقابل المتبادل بين اللغتين (كيمياء تعني بالفرنسية chimie وchimie تعني بالعربية كيمياء ؛ وكذلك الأمر بالنسبة للكرة الأرضية، والشمس، والقمر، والماء،الخ)، وليست حالة التقابل المتبادل هذه حالة شائعة في المعجم الفرنسي العربي[٢].

---

(١) انظر١٩٧٨، j.lyons,eiéments de sémantique,paris,larousse

(٢) يتطلب التقابل المتبادل الكامل المستوى نفسه من الدلالة الذاتية والدلالة الإيحائية الدلالة أي أنه يتطلب أن تكون الموازاة تامة بين اللغتين فيما يتعلق بما يرجع إليه المصطلح في الواقع المعاش وبما يتضمنه كل مصطلح من سمات دلالية وثقافية. وهذا أمر يندر وجوده بين لغتين متباعدتين عن بعضهما بعد عربية عن الفرنسية أو الإنكليزية.

٢-وأما أن لا يوجد في المحيط الثقافي-الاجتماعي أو الجغرافي الواقع الذي تدل عليه الكلمة في اللغة الأولى (مثل بعض الحيوانات، أو بعض أنواع الطعام، أو بعض مظاهر الطبيعة، الخ) [١]، أو أنه لا يقع ضمن المنظور الاجتماعي-الثقافي نفسه[٢].

هذا التحليل الدقيق للعناصر المكونة لكل مفردة لغوية، مصطلحاً كانت أم كلمة عادية، تسمح لوضع المصطلح بالوقوف موقفاً واضحاً وعلمياً ومميزاً لدى وضعه المصطلح. فالتمييز الثلاثي هذا يؤدي بنا إلى التفريق بين المفردة والمصطلح على أسس ثابتة وعلمية. وهذا التفريق ينحصر في الأمور الأساسية التالية:

١-الكلمة العادية تنتمي إلى اللغة، أي أنها تبقى داخل نظام اللسان في عملها، ووظائفها، وقواعدها.

٢-أما المصطلح فإنه يأخذ بعدين اثنين: البعد الأول لغوي، حيث أن المصطلح يعمل كمفردة لغوية عادية. أما البعد الثاني فمرجعي، حيث أن

---

(١) مثل fondue وهي وجبة فرنسية قوامها الجبنة المذوبة في النبيذ الساخن أو fondue bourguignonne وهي وجبة فرنسية كذلك وقوامها قطع من اللحم تغمس في الزيت المقلي.

(٢) فيما يتعلق بالمرجع والواقع الذي يدل عليه المصطلح، يعود الاختلاف بين اللغتين إلى عدة أمور هي: أ-الاختلاف في طبيعة المرجع نفسه.ب-رؤية الواقع والبنيات الثقافية-الفكرية الخاصة بكل واحدة من الثقافتين.ج-اندراج هذه الرؤية وهذه البنيات الثقافية-الفكرية في البنيات والتراكيب اللسانية الخاصة بكل لغة من اللغتين وهو اندراج يخضع للأدوات (الصرفية والنحوية والدلالية والسيميائية والبرغماتية) التي تستعملها كلّ منهما.

المصطلح ينتمي إلى عالم غير لغوي يحدده الميدان المعرفي أو العلمي الذي ينتمي إليه.

٣-يميز هذين البعدين الخاصين بالمصطلح هذا الأخير عن الكلمة العادية بكونه أحادي المعنى: المفهوم الواحد يدل عليه مصطلح واحد، والمصطلح الواحد يدل على مفهوم واحد.

ث-ولابدّ من ذكر ما توصل إليه عالم اللسانيات رومان جاكوبسون من تحديد وظائف اللغة عن طريق الرسم الذي وضعه **لعوامل التواصل اللساني** فهو يقول إنه لا وجود لتواصل إلا بوجود ستة عناصر، نذكر منها اثنين: المرسل أو المتكلم والمرسَل إليه أو المخاطب. فالأول يستعمل نظاماً من الرموز (هو اللسان) في سبيل وضع مرسلته التي يفهمها المخاطب بالعودة إلى هذا النظام نفسه. وهذا العمل يؤدي بنا إلى التكلم عن مفهوم ملاصق له هو «الاستعمال». فالترميز والاستعمال يؤديان بالمصطلح إلى أن يشيع في الحياة اليومية فيفقد أحادية المعنى الأساسية عنده ويصبح مجرد كلمة تنتمي إلى اللسان العام. وأسوق على سبيل المثال مصطلحين: أوكسجين وآزوت.

الأول تعدى كونه مصطلحاً ليدلّ على غير الغاز الذي يدل عليه في علم الكيمياء (الأوكسجين بمعنى الحياة، استعارة). وأما الآزوت فبقي في كوكبة الكلمات الاصطلاحية الخاصة بعلم محدد.

ج-ونصل أخيراً إلى ما يمكن لعلم اللسانيات أن يقدمه لنا في **مقابلة المصطلح العربي بالمصطلحات الأجنبية ووضع المعاجم الثنائية** بين لغتنا الأم واللغات الأخرى.

إن مسألة المصطلحات وتقابلها بين لغتين لابد وأن تُعالج على

مستويين اثنين: الترجمة (نص–نص) **والمعاجم** (لغة–لغة). الترجمة هي نقل موقف كلامي محدَّد زمنياً ومكانياً من لغة إلى أخرى. أما المعجم فهو لا يرتبط بأي موقف تخاطبيّ معيَّن ويقدِّم مقابلات لإمكانات الاستعمال بين لغتين. ولكي نعرف كيف تعمل المفردات داخل لغةٍ ما، نعود إلى التمييز بين نوعين من المعاجم: المعجم اللغويّ والمعجم الموسوعيّ.

في المعجم اللغوي يُفسِّر المصطلح–المادة بكلمة شاملة (ذات دلالة عامّة hyperonyme) يصحبها تعريف يخصِّص معناها ويحدّ من شموليتها وذلك بتحديد السمات الدلالية التي تميِّز هذا المصطلح عن سائر المصطلحات التي تندرج ضمن الكلمة الشاملة[١]. هذا بالإضافة إلى أنه يقدِّم معلومات عن استعمال الكلمة من حيث النطق (الصوت) والسياق (النحو) والاشتقاق (الصرف)، إلى ما هنالك من سمات لغوية بحتة. المعجم اللغوي يرتبط بالكفاية اللسانية إذاً، ويقف عند حدود الدال (الصوت) والمدلول(المعنى، الدلالة).

أما المعجم الموسوعي، فإنه لا يلتفت إلى التركيبة اللغوية للكلمة (دلالة، صوت، نحو، صرف،...) بل يتوجه إلى تحديد العناصر المعرفية المتعلقة بوجود الشيء الذي ترجع إليه[٢]. يقدِّم المعجم الموسوعي إذاً مجموعة من

---

(١) مثال على ذلك من المعجم الوسيط: الحصن: الموضع المنيع؛ الحصى: صغار الحجارة–موضع اسم شامل الحصن؛ منيع: خصصت الموضع بكونه موضعاً يمتاز فقط بصعوبة اقتحامه–حجارة: اسم شامل لحصاة، صغير: حُدِّدت الحجارة الصغيرة فقط من بين ما يدل عليه هذا الاسم الشامل.

(٢) مثال على ذلك مفردة حصن: أنواع الحصون، تطور بنائها، تاريخها، النماذج التي نعرفها، صورة أو صور عن بعضها، إلى ما هنالك.

المعلومات التي تهدف إلى تطوير المستوى الثقافي عند القارئ. إن المعجم اللغوي يتوجه إلى تنمية كفايته اللسانية في حين يعمل المعجم الموسوعي على تنمية كفايته المعرفية، كفايته الحضارية إذا صح التعبير، وهو يصل بالتالي إلى أبعاد المعرفة والثقافة[١].

هذا التمييز بين الدلالة اللغوية والدلالة المعجمية يفتح لنا سبيل تحليل اللغة العربية من المنظور الذي نعمل من خلاله. **اللغة العربية نظام يعمل على مستويين هما: مستوى الدلالة والترابط المعنوي والعلاقات الداخلية (على كافة الصعد الصوتية والدلالية والصرفية والنحوية)؛ ومستوى المرجعية أي علاقات المستوى السابق بكلّ ما يعود إليه في العالم المتخيَّل عند المتكلمين بالعربية.**

ويدلنا على هذا التمييز على أن العربية–مثلها في ذلك كمثل سائر اللغات–لا يمكن أن تُنعت بالغنية أو الفقيرة، ولا بالمتطورِّة أو المتخلِّفة. من الداخل هي نظام يتيح للمتكلم كل ما تتطلبه عملية التواصل من تخاطب ووصف علمي وتعبير وإيحاء. فهي من هذا المنظور قوية تتضمن–في المطلق وبالقوة، بالمعنى الفلسفي للكلمة–كل أسباب المعاصرة والتعبير عن الأفكار. أما من حيث علاقتها بالعالم الخارجي، فإنها لا تستمد طاقتها من ذاتها أو من داخلها بقدر ما تستمدها من الكفاية المعرفية والحضارية للجماعة التي

---

(١) فيما يتعلق بالتمييز الفلسفي والسيميائي بين الدلالة المعجمية والدلالة الموسوعية، انظر الفصل «المعجم ضد الموسوعة» من كتاب أمبيرتو أيكو: Umberto Eco,sémiotique et philosophie du langage, paris,p.u.f,١٩٨٨

تستعملها.

? ? ? ??

وهكذا، نجد أن اللسانيات والمصطلح صنوان لا يفترقان: العلم الأول يتناول اللغة فيحلل وظائفها ويسبر أغوار تراكيبها، في حين أن الثاني يتناول العالم الخارجي ويحاول أن يطوع اللغة في سبيل خدمته والدلالة عليه. فكلاهما يتناولان الموضوع نفسه، ولكن من منظورين مختلفين. ولابد من التأكيد هنا على أن التطور الذي شهدته اللسانيات في النصف الثاني من القرن العشرين جعل منها العلم الرائد والنموذج الأول للمنهجية العلمية التي تسوس التفكير الإنساني عموماً والمصطلحاتي خصوصاً.

(١)

(١)